كيف تكون مفتاحًا للخير

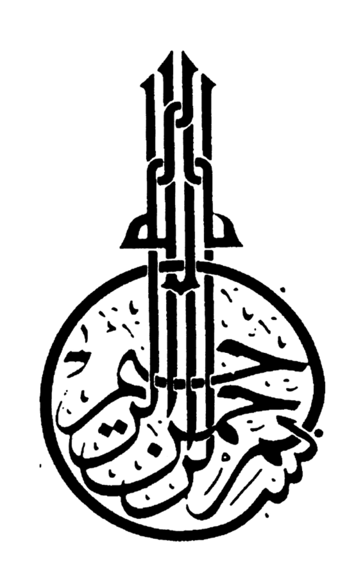
تأليف
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البدر، عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد
كيف تكون مفتاحا للخير. / عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد البدر. – المدينة المنورة، ١٤٣١هـ
٦٤ ص، ١٢ × ١٧سم
ردمك: ٦ - ٦٤٢٣ – ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- الوعظ والإرشاد أ - العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٣١/٢٢٥٢

رقم الإيداع: ١٤٣١/٢٢٥٢
ردمك: ٦ - ٦٤٢٣ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ



إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين؛ أمَّا بعد:

فقد روى ابن ماجة في «سننه»، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» وغيرُهما من حديث أنس بن مالك ﵁ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال:

«إِنَّ مِنَ النَّاسِ نَاسًا مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ، مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ نَاسًا مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ، مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مِفْتَاحَ الخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مِفْتَاحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ»[1].

---

(١) «سنن ابن ماجة» (٢٣٧)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٢٩٧)، والطَّيالسي في «مسنده» (٢٠٨٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٩٨)، وحسَّنه الألباني في «الصَّحيحة» (١٣٣٢).

وهذا الحديث العظيم، له نظائرُ كثيرة في سنَّة النَّبيِّ ﷺ تؤكِّد على معناه، وتقرِّر مدلوله ومضمونه، منها على سبيل المثال:

ما خرَّجه التِّرمذي رَحِمَهُ اللَّهُ في «سننه» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مرَّ النَّبيُّ ﷺ على نفرٍ جلوسٍ، فقال: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِكُمْ مِنْ شَرِّكُمْ؟**»، فسكتَ القوم؟! فأعادها النَّبيُّ ﷺ ثلاثًا، فقالوا: بلى؛ يا رسول الله!.. أخبرنا بخيرنا من شرِّنا؟ فقال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ، وَشَرُّكُمْ مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ**»[1].

ونظيرُه حديثُ أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «الصَّحيحين» وغيرِهما عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَمَثَلُ الجَلِيسِ السُّوءِ...**»[2]، وهو حديثٌ مشهور.

(١) «سنن الترمذي» (٢٢٦٣) وقال: حسن صحيح؛ وأخرجه أحمد (٨٨١٢)، وابن حبان (٥٢٨)؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٠٣).
(٢) البخاري (٢١٠١، ٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

إنَّ كلَّ مسلمٍ حريصٍ على سعادة نفسه وفلاحِها وفوزها في الدُّنيا والآخرة؛ عندما يسمع هذا الحديث العظيم ـ أعني حديث أنس، وكذلك أشباهه من الأحاديث الدَّالَّة على مضمونه ـ لا شكَّ أنَّ قلبَه يتحرَّك شوقًا وطمعًا، وتهتزُّ نفسُه رغبةً في أن يكون من مفاتيح الخير، وأن لا يكون مفتاحًا للشَّرِّ.

لا شكَّ أنَّ هذا مَطْلَب لدى كلِّ مسلم، ما من مسلم إلَّا ويحبُّ لنفسه أن يكون مفتاحًا للخير، وأن لا يكون مفتاحًا للشَّرِّ، يحبُّ لنفسه أن يكون من أهل «طوبى»، لا أن يكون من أهل «الوَيْل»، وهو العقاب الشَّديد والنَّكال الأليم الَّذي أعدَّه الله ـ تبارك وتعالى ـ لمفاتيح الشَّرِّ، مغاليق الخير.

والنَّفس عندما تَتُوقُ لهذا الأمر وتطمع فيه؛ لابدَّ من مجاهدتها لتحقيق أسبابه، والإتيان بمقاصده وغاياته حتَّى يكون العبد مفتاحًا للخير مغلاقًا للشَّرِّ، فعلًا

وواقعًا، وعملًا وتطبيقًا، ولا يكفي في ذلك مجرَّد التَّمنِّي أو مجرَّد التَّحلِّي، بل لابدَّ مِنْ فَهْمٍ لحقيقة الأمر، وقيامٍ به على التَّمام والكمال، مع طلب العون في ذلك، واللُّجوء الكامل في تحقيق ذلك إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ثمَّ نأتي إلى الشُّروع في المقصود، ألا وهو:

«كيف تكون مفتاحًا للخير؟»

الحديث عن هذا السُّؤال الكبير العظيم المهمِّ الَّذي نحتاج إليه جميعًا يكون في أمور عديدة؛ لعلَّها تَجمع أطرافَه ومهمَّاته، وسأعرضها مرتَّبة واحدةً تلو الأخرى.

الأمر الأول:

الله عَزَّ وَجَلَّ هو خير الفاتحين

أن نعلم أنَّ «الفتَّاح» هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وهو ـ جلَّ وعلا ـ خيرُ الفاتحين.

و«الفتَّاح» اسمٌ من أسمائه ـ جلَّ وعلا ـ، ويجب على كلِّ مسلم آمن بالله عَزَّ وَجَلَّ وآمن بأسمائه الحسنى ـ ومنها اسمُه ـ تبارك وتعالى ـ «الفتَّاح» ـ أن يُحسن التَّقرُّب إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ والتَّعبُّد له بأسمائه؛ عملًا بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ودعاؤه ـ تبارك وتعالى ـ بأسمائه الَّذي أمرنا به؛ يتناول دعاءَ العبادة ودعاءَ المسألة.

يتناول دعاء العبادة بفهم الاسم، ومعرفةِ مضمونه، وإثباتِ الصِّفة الَّتي دلَّ عليها الاسم، ومن ثَمَّ تحقيق التَّعبُّد والتَّقرُّب إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ بما يوجبه ويقتضيه الإيمانُ بالاسم.

واسمُ الله ـ تبارك وتعالى ـ «الفتَّاح»، هذا الاسم العظيم قد ورد في القرآن في موضعين:

الأوَّل: قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ في ذكر دعاء شعيب عليه السلام: ﴿**رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ** ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٩].

والموضع الثَّاني: في قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿**قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ** ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٦].

واسمه ـ جلَّ وعلا ـ «الفتَّاح» يدلُّ على ثُبوت صفة الفَتْح له ـ جلَّ وعلا ـ، وهذه الصِّفة العظيمة تتناول معانٍ ذَكَرَهَا أهلُ العلم هي مدلول هذا الاسم، ألَا وهي فَتْحُه ـ تبارك وتعالى ـ بين عباده بِشَرْعِه، وفتحُه ـ جلَّ وعلا ـ بين عباده بجزائه، وفتحه ـ تبارك وتعالى ـ بين عباده بأحكامه القدريَّة، قال تعالى: ﴿**مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢].

فهو ـ تبارك وتعالى ـ الفتَّاح.

ولهذا؛ الخطوة الأولى في هذا الباب: أن يلجأ من أراد لنفسه أن يكون مفتاحًا للخير إلى الفتَّاح ـ سبحانه ـ، وإلى خير الفاتحين ـ جلَّ وعلا ـ متوسِّلًا إليه، متذلِّلًا بين يديه، طامعًا في نواله ـ جلَّ وعلا ـ، صادقًا معه ـ سبحانه ـ.

والله عَزَّوَجَلَّ لا يخيِّب عبدًا ناداه، ولا يردُّ مؤمنًا أمَّل فيما عنده ورجاه ـ جلَّ وعلا ـ.

فالفتحُ كلُّه من الله ـ جلَّ وعلا ـ، فتحُه عَلَيْك بالعلم النَّافع، فتحُه عليك بالعمل الصَّالح، فتحُه عليك بالأخلاق الفاضلة.

كما قال بعض السَّلف: «إنَّ هذه الأخلاق وهائب، وإنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ إذا أحبَّ عبده وهبه منها»، والله عَزَّوَجَلَّ قَسَمَ بين العباد الأخلاق والأرزاق والأعمال والأعمار، وكلُّ شيء منه ـ جلَّ وعلا ـ.

ولهذا يكون الأمر الأوَّل في هذا الباب: اللُّجوء الكامل إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لا يمكن أن تنال علمًا أو تكسب

فهمًا أو تحقِّق خلقًا أو تقومَ بعبادة أو غير ذلك من الأمور، إلَّا إذا فتح الله عليكَ.

وكم هو جميلٌ هنا كلمةٌ قالها مطرِّف بن عبد الله ابن الشِّخِّير ـ من علماء التَّابعين رَحِمَهُ اللهُ ـ، قال كلمةً عجيبة، قال: «لو أُخرج قلبي وجُعل في يساري، وجيء بالخيرات كلِّها وجُعلت في يميني؛ لم أستطع أن أجعل شيئًا من هذه الخيرات في قلبي إلَّا أن يكون الله الَّذي يضعه»[1].

فالأمر بيد الله ـ تبارك وتعالى ـ من قبلُ ومِنْ بعدُ.

ولهذا ـ أحيانًا ـ يسمع الإنسان مواعظ وأشياء نافعة جدًّا له في دينه ودنياه، ويسمع من أبواب الخير وأبواب البرِّ وأبواب الفلاح، ولكنَّ نفسه تجنح وتجمح ويقلُّ منه العمل والعطاء، والتَّوفيق بيد الله، لا حول ولا قوَّة إلَّا به ـ جلَّ وعلا ـ.

▣ ▣ ▣

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٠١)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٩٠).

الأمر الثاني:

توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وإخلاص الدين له

أن نعلم أنَّ أعظمَ مفاتيح الخير وأجلَّها على الإطلاق؛ توحيد الله ـ جلَّ وعلا ـ، وإخلاص الدِّين له ـ سبحانه وتعالى ـ.

والتَّوحيد هو مفتاحُ كلِّ خير، وهو مفتاح الجنَّة، وقد جاء في حديثٍ رواه الحافظ البزَّار رَحِمَهُ اللَّهُ في «مسنده» عن معاذ بن جبل أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مِفْتَاحُ الجَنَّةِ شهادةُ أنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[(1)].

وهذا الحديث في سنده مقالٌ؛ لكنَّ معناه حقٌّ صحيحٌ، لا ريب فيه، وله شواهد كثيرة، ودلائل عديدة في سنَّة النَّبيِّ ﷺ، لا أطيل بذكرها؛ لكن من أوضحها ما خرَّجه مسلم من حديث عمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (٢٦٦٠)، وقال: «وشهْر بن حوْشَب لمْ يسمعْ مِنْ مُعَاذِ بن جبل».

النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ الوُضُوء أَوْ فَيُسْبِغُ الوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**»[1].

فالتَّوحيد مفتاحُ الجنَّة، ومن لم يأتِ بهذا المفتاح الَّذي هو التَّوحيد لا يدخل الجنَّة، ولهذا قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن الكفَّار: ﴿**لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ**﴾ [الأعراف: ٤٠].

الجنَّة لا يمكن دخولها إلَّا بالتَّوحيد، وقد قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ**»[2].

و«لا إله إلَّا الله» هي كلمة التَّوحيد، وهي مفتاح الجنَّة ـ كما تقدَّم ـ؛ لكنَّ هذا المفتاح لا يتحقَّق عملُه، ولا

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥٩٤)، والتِّرمذي (٨٧١)، والحاكم (٢/ ٣٣١)، وصحَّحه ووافقه الذَّهبي، وأقرَّهما الألباني في «الإرواء» (٤/ ٣٠١).

يتحقَّق دخولُ العبد الجنَّة به إلَّا إذا حقَّق شروط هذه الكلمة.

ولهذا ذكر الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الصَّحيح» عن وهب بن منبِّه ـ وهو من علماء التَّابعين ـ أنَّه سُئل، قيل له: أليس «لا إله إلَّا الله» مفتاح الجنَّة؟ قال: «بلى، ولكن لَيْسَ مِفْتَاحٌ إِلَّا لَهُ أَسْنَانٌ، فَإِنْ جِئْتَ بِمِفْتَاحٍ لَهُ أَسْنَانٌ فُتِحَ لَكَ، وَإِلَّا لَمْ يُفْتَحْ لَكَ»[1].

مشيرًا بذلك إلى شروط «لا إله إلَّا الله» الَّتي لا ينتفع بـ«لا إله إلَّا الله» إلَّا إذا حقِّقت وأُتي بها، كما جاءت في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنَّة نبيِّه ﷺ، وهي شروط سبعة، ذكرها أهل العلم وبسطوا أدلَّتها في كتب التَّوحيد، لا أطيل

(١) أخرجه البخاري تعليقا في كتاب الجنائز؛ باب في الجنائز، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله؛ وقال الحافظ في «الفتح» (٣/ ١٣٢): «وصله المصنف في «التاريخ»، وأبو نعيم في «الحلية» من طريق محمد ابن سعيد بن رمانة ـ بضمِّ الرَّاء وتشديد الميم ـ، وبعد الألف نون، قال: أخبرني أبي قال: قيل لوهب بن منبه، فذكره».

بشرحها؛ لكنَّها: العلم بمعناها نفيًا وإثباتًا المنافي للجهل، واليقين المنافي للشَّكِّ والرَّيب، والصِّدق المنافي للكذب، والإخلاص المنافي للشِّرك والرِّياء، والمحبَّة المنافية للبغض والكُرْه، والانقياد المنافي للتَّرك، والقبول المنافي للرَّدِّ.

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصـدقٌ مـع
محبَّـةٍ وانـقيـادٍ والقـبُـولُ لـهـا

والشَّيخ العلَّامة حافظ حكمي رَحِمَهُ اللَّهُ في منظومته المستطابة «سلَّم الوصول» جمع هذه الشُّروط في أبيات جميلة وشرحها شرحًا وافيًا في كتابه «معارج القبول»، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وبشـروط سـبـعـة قـد قـيِّـدت
وفي نصوص الوحي حقًّا وردَت

فـإنَّـه لا يـنـتـفِـع قـائـلُـهـــا
بالنُّطق إلَّا حيث يستكـمِـلُـهـا

العـلـم والـيـقـيـن والـقبـول
والانـقـيـاد فـادْرِ مـا أقــول

والصِّدق والإخـلاص والمحبَّـة
وفَّــقــك الـلَّــه لِـمـا أحـبَّــه

فهذه الكلمة العظيمة ـ كلمة التَّوحيد ـ الَّتي هي مفتاح الجنَّة، يجب على من أراد أن يكون مفتاحًا للخير على نفسه وعلى الآخرين أن يحقِّق التَّوحيد لله، وأن يحقِّق الإخلاص لله ـ جلَّ وعلا ـ، وأن يكون مبتغيًا في أعماله وطاعاته وقرباته كلِّها وجه الله عَزَّوَجَلَّ، يتقرَّب إلى الله بعبادته، ويتقرَّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالإحسان إلى النَّاس وطيب المعاملة لهم: ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾** ﴾ [الإنسان: ٩]، يعمل الأعمال ويأتي بها، لا يريد بها إلَّا نيل ثواب الله عَزَّوَجَلَّ وطلب موعوده العظيم الَّذي أعدَّه ـ تبارك وتعالى ـ لعباده المخلصين.

◘ ◘ ◘

الأمر الثالث:

العلم النافع

العلم النَّافع المستمدُّ من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنَّة نبيِّه ﷺ.

العلم أساسٌ لابدَّ منه ليكون العبد مفتاحًا للخير، ومن لم يكن عنده علم نافع كيف يُميِّزُ بين مفاتيح الخير ومفاتيح الشَّرِّ؟! كيف يميِّز بين الحقِّ والباطل؟! كيف يميِّز بين السُّنَّة والبدعة؟! كيف يميِّز بين الهدى والضَّلال؟! كيف يتَّقي باطلًا وهو لا عِلْمَ له؟! وقد قيل قديمًا: «كيف يتَّقي من لا يدري ما يتَّقي؟!».

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، والبصيرة هي العلم النَّافع، فمن لم يكن عنده علمٌ نافع؛ كيف يميِّز بين حقٍّ وباطل وهدى وضلال؟!

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢]، ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ

﴿ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزمر: ٩].

فمن أراد لنفسه أن يكون مفتاحًا للخير؛ عليه أن يحرص على العلم النَّافع، ويعتني به عنايةً دقيقةً، وقد جاء في حديثٍ رواه البيهقيُّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ غَدَا يَطْلُبُ عِلْمًا يَتَعَلَّمُهُ، فَتَحَ اللهُ لَهُ بِهِ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ**»(١)، وإسناده ضعيف، لكن يغني عنه ما صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ من حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه، وغيره أنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ قال: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ**»(٢)..

فالعلم أساسٌ عظيم، وأصلٌ كبيرٌ في هذا الباب، لابدَّ أن يعتنيَ به العبد ليكون بذلك من مفاتيح الخير، مغاليق الشَّرِّ.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٩٩)، من حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه؛ قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٠٢): «فيه عثمان ابن أيمن ولم أر من ذكره، وكذلك إسماعيل بن صالح»، وقال الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٧٣): «ضعيف جدًّا».

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبَّان (٨٨) من حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه. وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

وعندما لا يكون العبد متحلِّيًا بالعلم؛ ربَّما دخلت عليه أمور كثيرة، هي من الضَّلالات والبدع والأهواء، وهو يحسب أنَّه يُحسن صنعًا، ولا أطيل في بيان ذلك؛ لكن أروي فيه قصَّة مشهورة رواها الدَّارمي رَحِمَهُ اللهُ في «سننه»[1] بإسناد حسن، عن عمرو بن سلمة الهمداني قال:

كنَّا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعريّ فقال: أخرجَ إليكم أبو عبد الرَّحمن بعدُ؟ قلنا: لا، فجلس معنا حتَّى خرج، فلمَّا خرج قمنا إليه جميعًا، فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن! إنِّي رأيتُ في المسجد آنفًا أمرًا أنكرتُه ولم أرَ والحمد لله إلَّا خيرًا، قال: فما هو؟ فقال: إن عشتَ فستراه، قال: رأيتُ في المسجد قومًا حلقًا جلوسًا ينتظرون الصَّلاة في كلِّ حلقة رجل وفي أيديهم حصًى، فيقول: كبِّروا مائة؛ فيكبِّرون مائة، فيقول: هلِّلوا

(١) برقم: (٢٠٤).

مائة؛ فيهلِّلون مائة، ويقول: سبِّحوا مائة؛ فيسبِّحون مائة، قال: فماذا قلتَ لهم؟ قال: ما قلتُ لهم شيئًا، انتظار رأيك ـ أو انتظار أمرك ـ قال: أفلا أمرتهم أن يعدُّوا سيِّئاتهم، وضمنتَ لهم أن لا يضيع من حسناتهم، ثمَّ مضى ومضينا معه حتَّى أتى حلقة من تلك الحلق، فوقف عليهم، فقال: ما هذا الَّذي أراكم تصنعون؟! قالوا: يا أبا عبد الله! حصًى نعدُّ به التَّكبير والتَّهليل والتَّسبيح، قال: فعدُّوا سيِّئاتِكم، فأنا ضامنٌ أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمَّة محمَّد! ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيِّكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والَّذي نفسي بيده! إنَّكم لعلى ملَّة هي أهدى من ملَّة محمَّد! أو مُفْتَتِحُوا باب ضلالة؟ قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن! ما أردنا إلَّا الخير، قال: وكم من مريدٍ للخير لن يصيبه».

إذًا؛ لن يصيب الخير إلَّا من عرف الخير، إلَّا من عرف العلم، إلَّا من عرف الحقَّ، إلَّا من عرف السُّنَّة.

وجاء عن عبد الله بن مسعود نفسه رضي الله عنه ـ وقد رواه الإمام أحمد في «مسنده» ـ قال: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عُلِّمَ فواتح الخير، وخواتمه، وجوامعه»[1].

فإذا أردت أن تكون مفتاحًا للخير؛ فتعلَّم فواتح الخير وجوامعَ الخير، وخواتمَ الخير الَّتي اشتمل عليها كلامُ إمام الخير وقدوة الخلق محمَّد بن عبد الله، صلوات الله وسلامه عليه.

(١) «المسند» (٤١٦٠).

الأمر الرابع:

العناية بفرائض الإسلام وواجبات الدِّين

العناية بفرائض الإسلام وواجبات الدِّين والاجتهاد في القيام بها وتحقيقها؛ فإنَّ عنايتك بالفرائض واهتمامك بها ومحافظتك عليها يفتح لك من أبواب الخير، وأبواب البرِّ ما لا يخطر لك ببالٍ، ولا يدور لك بخيال.

والشَّواهد على ذلك والدَّلائل كثيرة؛ لكن أجتزئ بذكر بعضها:

جاء في «صحيح البخاري» من حديث أمِّ سلمة ـ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها زوج النَّبيِّ ﷺ ـ أنَّها قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، وفي رواية قال: «**سُبْحَانَ اللهِ! مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ مِنَ الفِتَنِ؟! مَاذَا فَتَحَ اللهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ مِنَ الخَزَائِنِ؟!**»[1].

(١) «صحيح البخاري» (١١٥، ١١٢٦، ٣٥٩٩، ٥٨٤٤، ٦٢١٨، ٧٠٦٩).

لا حظ ـ أيُّها القارئ الكريم! ـ فِتَنٌ نَزَلَتْ، وأبوابُ خزائن خَيْرٍ فُتِحَت، فإلى ماذا أرشد ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ؟

«**مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجُرَاتِ يُصَلِّينَ**».

فإذا كنت تريد لنفسك اتِّقاء الفتن، وتريد لنفسك أبواب الخير ودروب الخير ومفاتيح الخير؛ فهي في الصَّلاة.

ولعلَّك هنا تستذكر ما كان يُحافظ عليه النَّبيُّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ عند دخول المسجد، والحديث في «صحيح مسلم»[1] من حديث أبي أسيد أو أبي حميد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: «**اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ**»، وإذا خرج فليقلْ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ**».

(١) «صحيح مسلم» (٧١٣).

وفي رواية: « **افْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ**»[1].

فالإقبال على الصَّلاة وفعلُها فتحٌ لأبواب الرَّحمة، وأداؤها تامَّةً كاملةً فتحٌ لأبواب الرِّزق، فكيف يريد لنفسه من ينام عن الصَّلاة، ومَن يثقل رأسُه عن الصَّلاة أن تتفتَّح له أبواب الخير؟!

وفي الباب أحاديث كثيرة، منها ما رواه التِّرمذي في «جامعه» عن أبي الدَّرداء وأبي ذرٍّ رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، عن الله عز وجل أنَّه قال: «**ابْنَ آدَمَ! ارْكَعْ لِي مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ أَكْفِكَ آخِرَهُ**»[2].

ورواه الإمام أحمد وأبو داود بإسناد صحيح من حديث نعيم بن همّار الغطفانيّ رضي الله عنه[3].

---

(١) رواه الترمذي (٣١٤)، وابن ماجه (٧٧١) من حديث فاطمة رضي الله عنها.
(٢) «سنن الترمذي» (٤٧٥)، عن أبي الدَّرداء وأبي ذرٍّ رضي الله عنهما؛ وقال: حسن غريب؛ وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (٤٦٥).
(٣) «المسند» (٥/ ٢٨٦)، و«سنن أبي داود» (١٢٨٩).

فالحديث صحيحٌ ثابتٌ ـ وتأمَّله أيُّها القارئ الكريم! ـ:
«**ابْنَ آدَمَ! ارْكَعْ لِي مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ**».

الله ـ جلَّ وعلا ـ غني عن ركعاتك، وغنيٌّ عن سجودك، ولكن هذا باب خير وفتح خير لك، يدعوك إليه ربُّ العالمين.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «هذه الأربع عندي هي الفجر وسنَّتها»[1].

يعني السُّنَّة الرَّاتبة قبل الفجر وفريضة الفجر تركعها في أوَّل النَّهار، ثمَّ تنال هذا الخير العميم، والفتح العظيم.

فكم يُحرم من الخير مَنْ ينام عن صلاة الفجر، عندما يقوم ـ كما جاء في الحديث ـ: «**خبيثَ النَّفس كسلانَ**»[2]، أُغْلِقت أبوابُ الخير عنه وسُدَّت أبوابُ الرِّزق، وأوَّلُ اليوم هو أساسه وزمامه، وهو متنزَّل الأرزاق، ومتنزَّل البركات.

(١) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٦٠).
(٢) أخرجه البخاري (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦).

يقول بعضُ السَّلف: «يومُك مثلُ جَمَلِك؛ إن أمسكتَ أوَّلَه تبعك آخرُه»، فمن لم يمسك أوَّل اليوم بأداء الصَّلاة؛ ماذا ينتظر في بقيَّة يومه!؟

ولهذا من الأسس العظيمة في فتح أبواب الخير على نفسك، وعلى الآخرين المحافظة على فرائض الإسلام، وأداء واجبات الدِّين، ويأتي في مقدِّمة ذلك الصَّلاة.

وانظر ـ أيضًا ـ في فتح أبواب الخير لك؛ في عبادة الصِّيام، ومن ذلك الحديث العظيم الَّذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ: **«إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ، وَنَادَى مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَمْسِكْ»**[1]، فالعبادات والفرائض مع الاهتمام بها والمحافظة عليها من أكبر العون لك لِأَنْ تكون مفتاحَ خير على نفسك، ثم مفتاحَ خير على الآخَرين.

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٨٢)، وابن ماجه (١٦٤٢)، وابن حبان (٣٤٣٥)، والحاكم (١/ ٥٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ وقال الحاكم: صحيح على شرط الشَّيخين؛ وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥٩).

▣ الأمر الخامس:

مجاهدة النَّفس على البعد عن الآثام

من الأمور الَّتي يكون بها العبد مفتاحًا للخير مغلاقًا للشَّرِّ: مجاهدةُ النَّفس على البعد عن الآثام، وتجنُّبُ مواردِ الحرام ومعصيةِ الله ـ تبارك وتعالى ـ.

روى الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في «مسنده» عن النَّوَّاس ابن سَمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللهَ ضَرَبَ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ أَبْوَابٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَفِي أَوَّلِ الصِّرَاطِ مُنَادٍ يُنَادِي: يَا عِبَادَ اللهِ! ادْخُلُوا الصِّرَاطَ وَلَا تَعُوجُوا، وَمِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ** ـ وفي لفظ ـ: **وَمِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ مُنَادٍ يُنَادِي يَا عَبْدَ اللهِ! لَا تَفْتَحِ البَابَ فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلِجْهُ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فقَالَ: أَمَّا الصِّرَاطُ فَهُوَ الإِسْلَامُ، وَأَمَّا السُّورَانِ فَحُدُودُ اللهِ، وَأَمَّا الأَبْوَابُ الَّتِي عَلَيْهَا سُتُورٌ مُرْخَاةٌ فَمَحَارِمُ اللهِ، وَأَمَّا**

الْمُنَادِي الَّذِي يُنَادِي مِنْ أَوَّلِ الصِّرَاطِ فَكِتَابُ الله، وَأَمَّا الْمُنَادِي الَّذِي يُنَادِي مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ أَوْ مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ فَوَاعِظُ الله فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[1].

وهذه من مِنَّة الله على كلِّ مسلم أن جعل له في قلبه واعظًا عندما تحدِّثه نفسُه لفتح بابٍ من أبوابِ الحرام أو الدُّخول في شيءٍ من منافذ الباطل؛ تزجُرُه عن ذلك: يا عبد الله! لا تفتَح الباب؛ فإنَّك إن فتحتَه تلِجْه.

فمن أراد لنفسه أن يكون مفتاحًا للخير مغلاقًا للشَّرِّ؛ فليعلم ـ على ضوء هذا الحديث ـ أنَّه يسير في طريق مستقيم يُفضي بصاحبه إلى جنَّات النَّعيم، وعلى جنبَتي هذا الطَّريق المستقيم أبوابٌ كثيرة عن يمينه وعن يساره، وهذه الأبواب ليس فيها مغاليق ولا مفاتيح، وإنَّما عليها ستائر وهي أبوابٌ تُفضي إلى الحرام.

(١) «المسند» (١٧٦٣٤)، وأخرجه الحاكم (١/ ١٤٤)، وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولا أعرف له علَّة»؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٨٨٧).

ومن المعلوم أنَّ الباب الَّذي عليه سِتارة لا يكلِّف داخلَه وقتًا ولا جهدًا، بل يلامسُه بكتفه ويدخل سريعًا، بخلاف الباب المغلَق الَّذي يحتاج إلى مفتاح ومعالجة، فهذا يأخذ منكَ وقتًا، وأمَّا الباب الَّذي عليه سِتارة؛ فإنَّه يدخله الإنسان سريعًا، فأنت ماضٍ في طريق مستقيم، وعلى جَنبتي هذا الطَّريق أبوابٌ كثيرة تُدخل الإنسانَ إلى الحرام، وليس عليها إلَّا ستائر.

فيجبُ على الإنسان إذا أراد أن يكون مفتاحًا للخير أن يحذر غاية الحذر من أبواب الشَّرِّ الَّتي على يمينه وعلى شماله، وإذا دخل في شيءٍ منها فتح على نفسه أوَّلًا باب الشَّرِّ، ثمَّ فتحه على الآخرين؛ لأنَّ النَّفس إذا دخلت في الحرام وتوطَّدت فيه، وتمكَّن منها الحرام لا تحبُّ أن تكون وحدَها فيه؛ فيتحوَّل من فاعلٍ للحرام إلى داعٍ للحرام ومُرَغِّب فيه.

وهذا شأنُ أهلِ الباطل ودعاةِ الضَّلال وفسَّاق النَّاس في كلِّ وقتٍ وحينٍ، في بادئ الأمر وطِئت أقدامُهم الحرامَ، ووَلجوا فيه من أبوابه، ثمَّ أصبحوا دعاةً له، وفي هذا المعنى يقول الخليفة الرَّاشد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه: «ودَّت الزَّانية لو زنى النِّساءُ كلُّهنَّ»[1]، من دخل الحرامَ وولج فيه لا يحبُّ أن يكون وحيدًا فيه، فتبدأ نفسه تنطلق من كونها فاعلةً للحرام إلى داعيةٍ للحرام، ويكون بذلك ـ والعياذ بالله ـ مفتاحًا للشَّرِّ، مِغلاقًا للخير.

▣ ▣ ▣

(١) انظر: «الاستقامة» لابن تيمية (٢/ ٢٥٧).

الأمر السادس:

الدُّعاء

الدُّعاء، وهو مفتاحُ كلِّ خير، وفي هذا المعنى يقول أحد السَّلف: «تأمَّلتُ في جماع الخير فوجدت للخير أبوابًا كثيرة: الصَّلاة خير، الصِّيام خير، الحجُّ خير، أبواب الخير كثيرة، ووجدت أنَّ ذلك كلَّه بيد الله، فأيقنت أنَّ الدُّعاء مفتاحُ كلِّ خير».

لا تستطيع أن تصلِّي إلَّا إذا أعانَك الله، لا تستطيع أن تحجَّ، أن تصوم، أن تتصدَّق، أن تبرَّ والديك، أن تقوم بأعمال البرِّ إلَّا إذا أعانَك الله.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يرتجز يوم الأحزاب:

وَاللهِ لَـوْلَا اللهُ مَـــا اهْـتَـدَيْـنَـا

وَلَا صُـمْـنَـا وَلَا صَـلَّـيْـنَــا[1]

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢٠)، ومسلم (١٨٠٣).

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧ـ٨].

ولهذا إذا أردتَ لنفسك أن تكون مفتاحًا للخير، ومن أهل الفضل، ومن أهل العلم النُّبل، ومن أهل الأمور الفاضلة العظيمة؛ فاسألِ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ كلَّ ذلك بيده ـ جلَّ وعلا ـ، ولهذا قال غيرُ واحدٍ من أهل العلم: «الدُّعاءُ مفتاح كلِّ خيرٍ، فمن وفِّق لهذا المفتاح وفِّق للخير، ومن حُرم هذا المفتاح حُرم من الخير».

فالدُّعاء واللُّجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والصِّدق معه، والعناية بآداب الدُّعاء وشروطه وضوابطه المتقرِّرة في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هذا من أعظم ما يكون، بل هو أساسٌ في هذا الباب؛ وقد

تُقبل على الله عَزَّوَجَلَّ إقبالًا صادقًا، ترجوه وتأمِّله وتطمع في نواله، راجيًا منه، ويستجيب الله دعاءك، فتحيى حياتَك كلَّها مفتاحًا للخير مغلاقًا للشَّرِّ.

والأدعية في هذا الباب كثيرة، ولا أطيل بذكرها؛ لكن أُشير إلى دعاءٍ كان يقوله نبيُّنا ﷺ في كلِّ مرَّة يخرج من بيته؛ كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**»[1].

لاحِظ هذا الدُّعاء العظيم وجمالَه وشدَّة الاحتياج إليه في كلِّ مرَّة تخرج فيها من بيتك، فإذا أكرمَك الله واستجابَ لك هذه الدَّعوة؛ صِرْتَ مفتاحًا للخير ومغلاقًا للشَّرِّ.

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، والترمذي (٣٤٢٧) من حديث أمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قال الترمذي: «حسن صحيح»، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (٣١٦٣).

كان بعضُ السَّلف يقول في دعائه: «اللَّهمَّ سلِّمني، وسلِّم منِّي».

ودعاء النَّبيِّ ﷺ أوسع منه وأجمل وأتمُّ.

فعلى من أراد أن يكون مفتاحًا للخير أن يلجأ إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ، وأن يُلِحَّ عليه ـ سبحانه وتعالى ـ بالدُّعاء، أن يُكْرِمه بفتح أبواب الخير له.

ومن الدَّعوات العظيمة ما كان يحافظ عليه نبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ كلَّ يوم بعد صلاة الفجر: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا**»[1].

ومنها ما علَّمه النَّبيُّ ﷺ عائشة رضي الله عنها: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ، وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا**

(١) أخرجه أحمد (٢٦٥٢١)، وابن ماجه (٩٢٥) من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٧٥٣).

عَلِمْتُ مِنْهُ، وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا»[1].

(١) أخرجه أحمد (٢٥٠١٩)، وابن ماجه (٣٨٤٦)، وابن حبان (٨٦٩) من حديث عائشة ﵂؛ وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (١٥٤٢).

الأمر السابع:

تجنُّب موارد الفتن والشُّبهات، والحذر منها

من الأمور الَّتي يكون بها المرء مفتاحًا للخير: تجنُّب موارد الفتن والشُّبهات، والحذر منها.

وهذا يحقِّق للعبد السَّلامة في نفسه، وأيضًا السَّلامة من أن يكون مفتاحَ شرٍّ على النَّاس؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إنَّها ستكون أمورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، فعليكم بالتُّؤَدَة؛ فإنَّك أن تكون تابعًا في الخيرِ خيرٌ مِنْ أن تكون رأسًا في الشَّرِّ»[1].

فهنا من أراد لنفسه أن يكون مفتاحًا للخير مغلاقًا للشَّرِّ؛ لينتبه في الأمور المشتبهات وأمور الفتن، فلا يبرُز لها ولا يندفع اندفاعَ الطَّائشين المتهوِّرين الَّذين يوقِعون أنفسهم في الهلَكة ويوقعون غيرَهم فيها؛ بل يتأنَّى ويتَّئد،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٥/ ٣٤)، والبيهقي في «الشُّعب» (٧/ ٢٩٧).

ويتروَّى ويتَّصل بالعلماء الكبار والأئمَّة الأكابر، يستشيرهم ويسترشد بآرائهم، لا يندفع برأي رآه أو هوًى أعجبه أو كلام قيلَ له ودُفع نحوه؛ لأنَّه إذا اندفع اندفاعًا بلا تؤدة ولا أناة ورَّط نفسه في الشَّرِّ، وأيضًا صار مفتاح شرٍّ على الآخرين.

ولهذا يجب على الإنسان أن يتأنَّى، وأن يتَّئد، وأن يأخذ الأمور بالهدوء والأناة، وأن يُشاور أهلَ العلم، وأن يُكثر دعاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجنِّبه الشَّرَّ، لا أن يندفع وينساق وراء الفتن والشُّبهات ويبرز لها ويتصدَّر، ثمَّ يتورَّط بأن يكون قد فتح شرًّا على نفسه، وعلى الآخرين.

▣ ▣ ▣

◘ الأمر الثامن:

الرِّفق في الأمور، والتَّعامل مع النَّاس بمكارم الأخلاق

من الأمور الَّتي يكون بها المرء مفتاحًا للخير: الرِّفق في الأمور، والتَّعامل مع النَّاس بمكارم الأخلاق.

فإنَّ هذا من أعظم الرَّوافد لِأَنْ تكون مفتاحًا للخير.

وثِقْ ـ أيُّها الأخ الموفَّق ـ أنَّ صاحب الأخلاق الفظَّة والمعاملات السَّيِّئة لا يمكن أن يفتحَ بها قلوب النَّاس، وقد قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيِّه سيِّد ولد آدم: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

النُّفوس تنفر من الغليظ، من الشَّديد، من العنيد، من سيِّئ الأخلاق، حتَّى ولو كان الَّذي يقوله لهم خيرًا، فإنَّ

رعونة أخلاقه، وسوء معاملاته، وفظاظة أسلوبه تنفِّر النَّاس منه.

ولهذا يحتاج الإنسان ليكون مفتاحًا للخير أن يتعامل مع النَّاس المعاملة الرَّفيقة، وأن يكلِّمهم بالكلام الطَّيِّب الهادئ، الكلام الَّذي فيه التَّواضع، ليس فيه التَّعالي، وليس فيه التَّرفُّع على النَّاس، وليس فيه التَّطاول عليهم، ولو أخذتُ أضرب الأمثلة على ذلك من سنَّة النَّبيِّ ﷺ لطَالَ بنا المقام، لكن أضرب مثالًا واحدًا عجيبًا ومدهشًا:

عندما دخل نبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ مكَّة فاتِحًا في البلد الَّذي أوذي فيه أشدَّ الأذى، ذهب أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه وأتى بوالده ـ ووالدُه لم يكنْ قد أسلم بعدُ ـ أتى به إلى النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ممسِكًا بيده، وكان شعرُ لحيته ورأسه وحواجبه أبيض، كأنَّه

ثغامة، رجلٌ كبير في السِّنِّ، لحيته بيضاء، شعره أبيض، فجاء به أبو بكر إلى النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ.

فماذا قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ؟!

قال: «**هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ**»[1].

هذا الخلُق الرَّفيع العظيم مِنْ رَجُلٍ دخل فاتحًا في بلد أوذي فيه أشدَّ الأذى، ماذا يصنع في القلوب؟!

ثمَّ وضع ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يده على صدره، وقال: «**تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**»، قال: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّك رسول الله.

وقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ لمعاذ بن جبل ـ ووضع يده على كتفه وهو شابٌّ صغير من شبَّان الصَّحابة ـ: «**يَا مُعَاذُ! إِنِّي أُحِبُّكَ؛ فَلَا تَدَعَنَّ دُبُرَ كُلِّ**

(١) أخرجه أحمد (٢٦٩٥٦)، وابن حبان (٧٢٠٨)، والحاكم (٣/ ٤٦) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم».

صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[1].

فَرْقٌ بين هذا وبين من يخاطبُ الصَّغير: يا ولد! أو يا جاهل! أو يا كذا! بعبارات غليظةٍ تغلق القلوب، وتنفِّر النُّفوس.

ولهذا من أراد لنفسه أن يكون مفتاحًا للخير؛ فليتحلَّ بمكارم الأخلاق ونَبِيلها، وقد قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ»[2].

◙ ◙ ◙

(١) أخرجه أحمد (٢٢١٧٢)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنَّسائي في «الكبرى» (٩٩٣٧)، وابن حبَّان (٢٠٢٠)، والحاكم (١/ ٤٠٧) وقال: «صحيح الإسناد على شرط الشيخين»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، والحاكم (٣/ ٦١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (٤٥).

الأمر التاسع:

الاستباق إلى الخير

لا يتحقَّق للعبد أن يكون متمِّمًا للفتح على النَّاس بالخير إلَّا إذا كان هو معتنيًا بالخير، فاعلًا له، سبَّاقًا إليه، وانظر إلى قول شعيب عليه السلام عندما قال لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

ولهذا مَنْ يدعو النَّاس إلى الخير ينبغي أن يكون سبَّاقًا للخير، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، فلا يكفي أن يكون الإنسان داعيةً بلسان مقاله وأن يكون مفرِّطًا مضيِّعًا بواقع حاله، بل ينبغي أن تكون أفعاله قدوةً، وهنا تبلغ المسألةُ خطورتَها عندما يكون الإنسانُ الَّذي يدعو النَّاس إلى الخير أعمالُه تدعوا النَّاس إلى الشَّرِّ.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علماء السُّوء جلسوا على باب الجنَّة يدعون إليها بأقوالهم، ويدعونهم إلى النَّار بأفعالهم، فكلَّما قالت أقوالهم للنَّاس: هلمُّوا! قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم؛ فلو كان ما دعوْا إليه حقًّا كانوا أوَّل المستجيبين له؛ فهم في الصُّورة أدلَّاءُ ـ يعني هؤلاء العلماء، علماء السُّوء في الصُّورة أدلَّاء يعني يدلُّون النَّاس إلى الجنَّة ـ، وفي الحقيقة قطَّاع الطَّريق»[1] انتهى.

(١) «الفوائد» (ص٨٥).

الأمر العاشر:

تذكُّر الآخرة والوقوف بين يدي الله

من الأمور الَّتي يكون بها الإنسان مفتاحًا للخير: أن يَذْكُرَ الآخرة والقيام بين يدي الله ـ تبارك وتعالى ـ، ومجازاة النَّاس على أعمالهم، وأنَّ ما يقوله وما يصدُر منه من عمل كلُّ ذلك يلقى الله عَزَّوَجَلَّ به يوم القيامة.

وأن يتذكَّر في هذا الباب أنَّ الجنَّة لها ثمانية أبواب، والنَّار لها سبعة أبواب، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في أواخر سورة الزُّمَر: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ

فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧١ ـ ٧٤].

فالجنَّة لها أبواب، وأبوابها لها مفاتيح، والنَّار لها أبواب، وأبوابها لها مفاتيح، ومفاتيح الجنَّة والنَّار في الدُّنيا وليست في الآخرة، ليس في الآخرة إلَّا الجزاء والحساب، أمَّا الدُّنيا هي الَّتي فيها المفاتيح، مفتاح الجنَّة التَّوحيد، الصَّلاة، الصِّيام، طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، امتثال الأوامر؛ والنَّار مفاتيحها الشِّرك بالله، والكفر به ـ سبحانه وتعالى ـ، والمعاصي والآثام؛ أمَّا الشِّرك والكفر بالله ـ تبارك وتعالى ـ فإنَّ من مات عليه فُتِحَت له أبواب النَّار وخلِّد فيها أَبد الآباد، وأمّا المعاصي والآثام التي دون ذلك؛ فإن دخل النَّار صاحبها عُذِّب فيها على قدر ذنوبه ولا يخلَّد في النَّار إلَّا المشرك.

جاء في «الصَّحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ الله نُودِيَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ الله! هَذَا خَيْرٌ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ نُودِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمن كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ نُودِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ نُودِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ نُودِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ**».

قال أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسول الله! ما على مَنْ نودي من هذه الأبواب من ضرورةٍ، فهل يُدعى أحدٌ من هذه الأبواب كلِّها؟ قال: «**نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**» متَّفق عليه[(١)].

فمحافظةُ العبد على هذه الطَّاعات وهذه العبادات: الصَّلاة، الصِّيام، الصَّدقة.. إلى غير ذلك، هذه كلُّها مفاتيح للجنَّة.

(١) البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧).

وكذلك دعوة النَّاس إلى الخير: «**الدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ**»[1]، وهذا فضلٌ عظيم، تدعو شخصًا إلى طاعة فيقوم بها؛ يُكْتَبُ لك مثل أجره، وترتفع درجاتك في جنَّات النَّعيم، وأنت كنت بذلك دالًّا على الخير، مفتاحًا للخير.

فإذًا؛ هذا من الأمور المهمَّة في هذا الباب العظيم: أن تذكر الجنَّة والنَّار والوقوف بين يدي الله ـ تبارك وتعالى ـ.

▣ ▣ ▣

(١) حديث أخرجه بهذا اللَّفظ التِّرمذي (٢٦٧٠)، والضِّياء المقدسي في «المختارة» (٢١٩٣) عن أنس رضي الله عنه مرفوعا؛ وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (١٦٦٠).

الأمر الحادي عشر:

مرافقة الأخيار ومجالسة الصَّالحين

مرافقة الأخيار ومجالسة الصَّالحين، وفي «الصَّحيحين» عن أبي موسى الأشعري ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ المسْكِ، وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»[1].

فمن أراد أن يكون مفتاحًا للخير؛ فليصبر نفسه مع أهل الخير وأهل الفضل وأهل الطَّاعة، قال الله ﷻ: ﴿**وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا**

(١) البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

نُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: ٢٨].

وليحذر أشدَّ الحذر من مرافقة الأشرار، حيث يندم يوم القيامة ولا ينفعُه ندمٌ: ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا** ﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

◻ ◻ ◻

الأمر الثاني عشر:

الحرص على نشر الخير

النُّصح للعباد حالَ معاشرتهم ومخالطتهم بِشَغْلِهم بالخير وصرفِهم عن الشَّرِّ، وقد قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ، الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»[1].

ولا يكون الإنسان مفتاحًا للخير إلَّا إذا كان في كلِّ مجلس من مجالسه حريصًا على نشر الخير.

ولهذا يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ**﴾ [مريم: ٣٢]، قال:

«أي معلِّمًا للخير داعيًا إلى الله، مذكِّرًا به، مرغِّبًا في طاعته، فهذا من بركة الرَّجل، ومن خلا من هذا فقَدْ خلا من البركة، ومُحقت بركةُ لقائه والاجتماع به»[2].

(١) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث تميم الدَّاري رضي الله عنه.
(٢) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص٥).

وقد مرَّ في الحديث المتقدِّم قول النَّبيِّ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ**».

الأمر الثالث عشر:

أبواب الخير متتابعة

إنَّ أبواب الخير متتابعة، من فُتح له منها بابٌ تفتَّحت له أبواب، وهذه من نعمة الله، وأهل العلم يقولون: «إنَّ الحسنة تُنادي أختَها وتدعوها»؛ فإذا انشرح صدرُك لبابٍ من أبواب الخير وأقبلت عليك، فهذه من نعمة الله عليك؛ لأنَّ الحسنةَ تنادي الحسنةَ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وإذا وجدت من نفسك إقبالًا ونشاطًا على بابٍ من أبواب الخير؛ فاغنمه قبل أن يُحال بينك وبينه؛ فإنَّك إن ولجت باب الخير ودخلته ـ ولو كان أمرًا يسيرًا ـ فستجد أن هذا القليل اليسير يدعو غيرَه ويُفتِّح لك أبوابًا أخرى، الحسنةُ تنادي الحسنةَ، والسَّيِّئةُ ـ والعياذ بالله ـ أيضًا تنادي السَّيِّئةَ: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ [الروم: ١٠].

ومن الأحاديث الواردة في هذا المعنى: ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ عَطِيَّةٍ بِصَدَقَةٍ أَوْ صِلَةٍ إِلَّا زَادَهُ اللهُ تَعَالَى بِهَا كَثْرَةً**»[1]، ولهذا ينبغي على الإنسان أن يَغنم نشاطَه وإقبالَ نفسه، والنَّفسُ لها إقبالٌ وإدبارٌ، إذا أقبلت على بابٍ من أبواب الخير، ادْخُل ولو كان قليلًا؛ لأنَّ هذا الخيرَ القليلَ يجرُّك إلى خيرٍ آخر، وهكذا تترقَّى في أبواب الخير وتتدرَّج في منازله خطوةً خطوةً.

وإيَّاك أن تحرُمَ نفسَك من خير ـ ولو كان قليلًا ـ؛ لأنَّه قد يُحال بينك وبينه، يحُول الله عَزَّ وَجَلَّ بين المرء وقلبه؛ فاغنم الخير القليل يجرُّك إلى خيرٍ كثير.

◘ ◘ ◘

(١) أخرجه أحمد (٩٦٢٤)، والبيهقي في «الشُّعب» (٣١٤٠)، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (٢٢٣١).

الأمر الرابع عشر:

لا تحقرنَّ ما فُتح على غيرك من أبواب الخير

من فُتح عليه باب من أبواب الخير فلا يحقرنَّ ما فُتح على غيره به من أبواب الخير الأخرى، فعندما يُفتح عليك باب من أبواب الخير كالصَّلاة مثلًا وفِّقت للصَّلاة أو للصِّيام صيام النَّوافل مثلًا أو وفِّقت لبعض أعمال الخير وأعمال البرِّ لا تحقرنَّ أبواب الخير الَّتي فُتحت على الآخرين.

أنت فُتح عليك بالصِّيام، وآخر فُتح عليه بخدمة للإسلام وبأعمال جميلة، قد لا تراها شيئًا في مقابل قيامك أو صيامك أو صدقتك، وقد تكون أعمال الآخر أعظم من أعمالك وأجلَّ عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

فالشَّاهد من فُتح له من أبواب الخير؛ فلا يحقرنَّ أبواب الخير الَّتي عند الآخرين، أنت على خير، وهو على خير، لا تحقرنَّ شيئًا من الخير فُتِحَ على الآخرين به.

بعض النَّاس ـ وهذه مشكلة في كثير منَّا ـ عندما يوفَّق لطاعة من الطَّاعات كالصِّيَام مثالًا أو القيام، ثمَّ يرى آخر لا يعمل مثل عمله، ربَّما تحاقره وتصاغره، وقد يكون هذا الآخر عنده أعمال بينه وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ جليلة جدًّا، أعظم من هذه الطَّاعة القاصرة على صاحبها، هناك طاعات متعدِّية، وهناك طاعات قاصرةٌ على الإنسان، ولهذا لا يحقر الإنسان من المعروف شيئًا.

ولهذا من الأمور الطَّريفة اللَّطيفة الَّتي تُروى في هذا الباب: قصَّة جميلة دارت بين الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ وأحد العبَّاد المشتغلين بالعبادة، والقصَّة ذكرها ابن عبد البر في «التَّمهيد»[1] وعنه الذَّهبيُّ في «سير أعلام النُّبلاء»[2]: أنَّ عبد الله بن عبد العزيز العمري العابد كتب إلى مالك يحضُّه إلى الانفراد والعمل، ويرغَبُ به

(١) (٧/ ١٥٨).
(٢) (٨/ ١١٤).

عن الاجتماع إليه في العلم، فكتب إليه مالك: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتح له في الصَّلاة ولم يُفتح له في الصَّوم، وآخر فُتح له في الصَّدقة ولم يفتح له في الصِّيام، وآخر فُتح له في الجهاد ولم يفتح له في الصَّلاة، **ونشر العلم وتعليمه من أفضل أعمال البرِّ**، وقد رضيتُ بما فَتح الله لي فيه من ذلك، وما أظنُّ ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كِلَانَا على خير، ويجب على كلِّ واحد منَّا أن يرضى بما قُسم له؛ والسَّلام».

وانظر إلى قول هذا العالم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأرجو أن يكون كِلَانَا على خير»، ولم يقلْ: أنت ما تَفهم أو أنتَ ما عندك مثل ما عندي من العلم وأنت أمرُك أهون؛ بل قال له كلامًا جميلًا متواضعًا ختمه بقوله: «وأرجو أن يكون كِلَانَا على خير»، أنا على خير وأنت على خير؛ لكن الخير الَّذي أنا فيه أرى أنَّه أعظم؛ لأنَّ نفعه متعدٍّ، بخلاف

العابد، نفعُه قاصرٌ عليه، ولهذا في حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه، قال ﷺ: «**فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ**»[1].

◘ ◘ ◘

(١) أخرجه أحمد (٢١٧٦٣)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وابن حبان (٨٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

الأمر الخامس عشر:

مداواة النَّفس

وهو أمرٌ عظيمٌ جدًّا ألا وهو: مداواة النَّفس، من أراد أن يكون مفتاحًا للخير؛ فليجتهد في مداواة نفسه من أمراض القلوب.

وأمراض القلوب خطيرةٌ جدًّا ومضرَّة على الإنسان غايةَ الضَّرر، مثل: الحسد، والحقد، والضَّغائن، والغلِّ، وغير ذلك من الدَّفائن الَّتي تكون في القلوب والسَّخائم الَّتي تنطوي عليها القلوب.

فمن أراد أن يكون مفتاحًا للخير؛ فليجتهد في معالجة نفسه ومدواتها بطرد أمراض القلوب عنها، مستعينًا بالله ـ تبارك وتعالى ـ، وطالبًا منه.

قد جاء عن النَّبيِّ ﷺ في هذا المعنى دعواتٌ عظيمةٌ، منها الدُّعاء العظيم المبارك الَّذي ختمه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ بقوله: «**وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صدرِي**»(١).

(١) أخرجه أحمد (١٩٩٧)، وأبو داود (١٥١٠)، والترمذي (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٣٠)، وابن حبان (٩٤٧)، وقال الترمذي: «حسن صحيح»؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٣٥٣).

الصُّدور إذا كان فيها سخائم، وفيها أحقادٌ، وفيها ضغائنٌ، وفيها غلٌّ؛ كيف يكون صاحبُها مفتاحًا للآخَرين بالخير؟! قلبُه فيه دفائن شرٍّ، وفيه خبايا شرٍّ، وفيه غلٌّ وحقدٌ؛ فكيف ينبع من قلب هذه صفته فتح أبواب الخير للآخرين؟! ولهذا الحاسد الممتلئ بالغلِّ ربَّما تظاهر مع الآخرين بأنَّه يُصلِح وأنَّه يفتِّح لهم أبواب خير وهو يفسِد.

خُذْ مثالًا على ذلك: إمامُ الحَسَدَة إبليس لَمَّا حسد أَبَانَا آدم؛ ماذا صنع؟ جاءه بصورة النَّاصح الأمين، وأخذ يُغْرِيه، وأخذ يذكر له أمورًا يُشعره بها أنَّه ناصح له.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ** ﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢].

وهكذا من يكون في قلبه دفائن شرٍّ أو دفائن حقد أو نحو ذلك؛ ليس أهلًا أن يكون مفتاحًا للخير، بل مثل

هذا سيكون مفتاحًا للشَّرِّ، ولهذا يحتاج القلب إلى معالجة دائمة مستمرَّة والتماس ورجاء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يُبعد عنه السَّخائم، وأن ينقِّيَه من مثل هذه الأمور، وفي الدُّعاء: «**اللَّهُمَّ آتِ نفسي تَقْوَاهَا، وزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»[1].

▣ ▣ ▣

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

الأمر السادس عشر:

رغبة العبد في الخير، وفي نفع العباد

وهو ختام هذه الأمور وهو جماع ما سبق: رغبة العبد في الخير وفي نفع العباد، فمتى كانت الرَّغبة قائمةً، والنِّيَّة مصمِّمةً، والعزم أكيدًا، واستعانَ بالله في ذلك وأتى الأمور من أبوابها؛ كان بإذن الله مفتاحًا للخير مغلاقًا للشَّرِّ.

وفي الختام أسأله ـ جلَّ وعلا ـ بأسمائه كلِّها وصفاته جميعها، وبأنَّه ـ تبارك وتعالى ـ الفتَّاح العليم، وبأنَّه خيرُ الفاتحين، أسأله ـ جلَّ وعلا ـ لي ولوالديَّ ولمشايخنا ولعموم المسلمين؛ أن يفتح علينا أجمعين من واسع فضله وعظيم منِّه وجزيل عطائه، وأسأله ـ جلَّ وعلا ـ أن يجعلنا جميعًا من مفاتيح الخير ومغاليق الشَّرِّ، وأن يهدينا وأن يهدي لنا، وأن يهدي بنا، وأن ييسِّر الهدى لنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين[1].

□ □ □

(١) أصل هـذه الرسـالة محـاضرة ألقيتهـا في جـامع الراجحـي بالريـاض، وأجريت عليها ما تيسر من تعديل، مـع بقـاء الأسـلوب الإلقـائي في الغالب، وبالله وحده التوفيق.

الفهرس